المنهج الوصفي بين التراث اللغوي العربي واللسانيات الحديثة

The descriptive approach between the Arabic linguistic heritage and modern linguistics

رياض بوزنية [1]

[1] جامعة جيجل(الجزائر)

الملخص:

تبنت اللسانيات الحديثة المنهج الوصفي، ثائرة على المناهج التاريخية والمقارنة والمعيارية، فقد رأت في الأول والثاني خروجا عن جوهر البحث اللغوي إلى الهامش منه، ذلك أن البحث في تاريخ اللغة مثلا لا يفيدنا كثيرا في معرفة لغة ما وأما المنهج المعياري ففيه تضييق كبير على البحث اللغوي وحصر له ولإمكاناته. وهكذا تخطى البحث اللغوي مرحلة الملاحظة إلى مرحلة الوصف في اللسانيات الحديثة، واعتبر هذا وبشكل صريح عند الغرب إنجازا حديثا أي غربيا، فهل هذا صحيح؟ وهل أن الدراسات اللغوية العربية كانت فعلا ذات طابع معياري؟

وللإجابة عن هذا السؤال نحاول العودة إلى بعض المصادر اللغوية العربية متقصين فيها مظاهر الوصفية والمنهج الوصفي، وكذا الوقوف على مراحل المنهج الوصفي عند بعض اللغويين العرب القدامى.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، المنهج الوصفي، اللسانيات العربية.

Abstract:

Modern linguistics adopted the descriptive approach, opposing the historical, comparative, and standard approaches. It saw in the first and second a departure from the core of linguistic research to the margins of it. This is because research in the history of language, for example, does not benefit us much in knowing a language. As for the standard approach, it greatly restricts linguistic research and limits For him and his potential. Thus, linguistic research moved beyond the observation stage to the description stage in modern linguistics, and this was explicitly considered by the West to be a modern, i.e. Western, achievement. Is this correct? Were Arabic linguistic studies really of a normative nature?

To answer this question, we try to return to some Arabic linguistic sources, investigating the aspects of descriptiveness and the descriptive approach, as well as examining the stages of the descriptive approach According to some ancient Arab linguists.

Key Words :

Linguistics, The descriptive approach, Arabic Linguistics

مقدّمة:

شهد الدرس اللغوي تطورا مذهلا في العصر الحديث، فمنذ اكتشاف السير ويليام جونز للقرابة بين السنسكريتية واللغات الأوروبية تزايد الاهتمام باللغة ودورها في المجتمعات، وتطورها عبر الحضارات، وازدهرت حينها الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة، ولمع في سماء أوروبا الكثير من علماء اللغة، وما لبث أن انتقل الدرس اللغوي إلى عصر جديد من النحاة في ليبزج بألمانيا، حيث تحولت المقارنة إلى قوانين وأحكام.

ولكن الحلقة الأهم جاءت مباشرة بعد العصر الذهبي للنحاة، وعلى يد واحد من تلك الحلقة وهو السويسري فردينا ندي سوسير، الذي أحدث التأثر الأكثر عمقا في الدراسة اللغوية.

والحق أنه يصعب الحديث عن إنجازات وآثار اسم لامع ك (دي سوسير)، ولكننا نستطيع سرد الخطوط العريضة في سيرة أعماله. وهنا نقول أن سوسير هو الذي استطاع حد علم اللغة، ووضع المجال والمنهج، وضبط موضوع علم اللغة بدقة، واشتهر في ذلك بعبارته: "موضوع علم اللغة الوحيد هو اللغة من أجل ذاتها ولذاتها".

لقد أدرك هذا العالم أن علم اللغة يتجه نحو الانصهار في علوم أخرى مجاورة كالتاريخ والنقد والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، ولذا كان هدفه الأول عزل محاور الدراسة بشكل يحميها من الذوبان في مباحث ومجالات علوم أخرى. وعليه اقترح حصر موضوع علم اللغة في اللغة من أجل ذاتها ولذاتها.

كما لاحظ دي سوسير أن القضايا اللغوية كانت تدرس بشكل مجزأ، فاقترح تصوره الجديد للغة ولعناصرها فيما عرف فيما بعد بالبنيوية، والتي دخلت إلى علم اللغة عن طريق دي سوسير الذي تتضح نواياه البنيوية في عبارته الشهيرة: "اللغة نظام من العلامات".

ثم كان أمامه ضرورة تحديد المنهج، فانحاز للوصفي دون إقصاء التاريخي. وتلك إحدى أهم أفكاره ومقترحاته، بل يمكن أن نرى بوضوح أن أهم إنجاز حققته محاضرات سوسير في الألسنية العامة، كانت هي نقل الدراسة اللغوية من الملاحظة إلى الوصف، رغم أن معظم الأفكار المهمة فيها نجدها بالتفاصيل ذاتها عند الألماني هومبولت، كما أن علم اللغة خطا خطوة عملاقة أخرى على يد اللغوي البارع نعوم تشومسكي الذي نقل الدرس اللغوي من الوصف إلى التفسير.

إذا، فقد رأى سوسير أن الوصف ينبغي أن يكون سابقا للدراسة التاريخية أو المقارنة، وأوضح بأن معرفة تاريخ لغة ما، أو علاقة لغة بأخرى من نفس الفصيلة أو من فصيلة مختلفة لا يفيدنا كثيرا في معرفة تلك اللغة، إنه وصف أنظمة اللغة وتحديد عناصرها والعلاقات بينها ، وحده الذي يسمح بمعرفة أفضل.

إذا، ما المقصود بالوصف، وما هي مراحل المنهج الوصفي؟ وهل هو حق اكتشاف سوسيري؟ وهل حقا أن الدرس اللغوي العربي هو درس معياري تماما؟ يخلو من أي استعمال للمنهج الوصفي؟

1- تعريف المنهج الوصفي:

يعرف الوصف في عرف البحث العلمي بأنه النظر في الواقع أو الظواهر أو الأشياء من أجل التعبير عنها كميا أوكيفيا، فالتعبير الكمي يعطينا وصفا للظاهرة أو الشيء أو لموضوع البحث، عن طريق إبراز الخصائص والميزات، التي قد تتجسد في الشكل أو البنية أو المضمون أو غيرها، بينما يعطينا الوصف الكمية تقديرا كميا.[1]

وأما في البحث اللغوي، فيعرف المنهج الوصفي بأنه النظر في اللغة باعتبارها تنظيما قائما بذاته[2]. وقد بلغ هذا المنهج ذروته في الدراسات اللغوية في العصر الحديث، وجاء كرد فعل على الأنحاء المعيارية التي سادت في أوروبا والعالم في العصور الوسطى والتي كان الهدف منها تعليميا خالصا.

وقد ركز المنهج الوصفي على وصف اللغة في فترة زمنية محددة، للوصول " إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها أو نتوصل على الأقل لمعرفة البنية أو التركيب الهيكلي للغة"[3].

وقد ميز دي سوسير بين الدراسة الوصفية والدراسة المعيارية للغة، من حيث المادة والمنهج، فالدراسة الوصفية ليس فيها تفضيل لمستوى على آخر، أو انتقاء لمدونة دون أخرى، ولكن الدراسات المعيارية تقوم على هذا الجانب، أي أنها تضع دائما نموذجا أعلى، ونموذجا أدنى وتقيم المقارنة بينهما على أساس الخطأ والصواب.

ويقترن الوصف في الدرس اللغوي العربي الحديث والمعاصر باللغوي الفذ فرديناند دي سوسير، ويشترك مع البنيوية في الانتساب لهذا اللغوي بشكل لا يبرره سوى الخلط بشكل غير مبرر إطلاقا. ليس هذا فحسب؛ بل إن الوصف كثيرا ما يظهر في الدراسات اللغوية الحديثة كمقابل للمنهج التاريخي، وهو أمر غير صحيح، بل هو خاطئ تماما. والأمثلة في هذا كثيرة جدا، بل إن أغلب التعاريف المقدمة للمنهج الوصفي تضعه كمقابل للمنهج التاريخي والمقارن، أي أن اللسانيات الوصفية مقابلة للسانيات التاريخية والمقارنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وبالمثال يتضح المقال !

وسأقتصر هنا على نموذج واحد فقط. يقول الدكتور علي زوين عن المنهج الوصفي وما جاء به :"وابتعد بذلك عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة، مؤكدا وصف اللغة في فترة زمنية محددة"[4].

وهو خلط صريح بين الدراسة الآنية والدراسة الوصفية.

يتميز المنهج الوصفي بمجموعة خصائص، لخصها الأستاذ سمير شريف استيتية:[5]

1– دراسة اللغة دراسة واصفة، تبتعد عمّا وقع فيه النحاة التقليديون في اللغات الغربية، من استنباطات غير مبنية على **استقراء الظواهر اللغوية**. فقد كان اللغويون الغربيون لا يعبأون باستقراء الظاهرة اللغوية، وكان أهم ما يعنيهم هو أن تتحول الظاهرة النحوية أو اللغوية إلى قاعدة قدّروها تقديرًا. لم يكن النحو العربي كذلك، فلا شك أنه كان مبنياً على استقراء الظواهر اللغوية من أفواه أبناء اللغة. وقد كان النحاة متشددين في هذا الأمر، فلا وجه للمقارنة بين النحو التقليدي في اللغات الغربية والنحو العربي. ومن هنا لم يكن وجه السوء واحدًا حتى تكون الثورة واحدة.

2– دراسة اللغة من الداخل. وقد عبّر بعضهم عن ذلك حين قال: "علم اللغة هو دراسة اللغة بذاتها لذاتها ". وترتب على ذلك رفضُ استخدام النظر العلمي في أي ميدان من ميادين الحياة العلمية على دراسة اللغة. فلا يجوز نقل المفاهيم النفسية والاجتماعية إلى اللغة. ومن عجب أن بلومفيلد وسائر التركيبيين الذين ينتمون إلى مدرسته، قد تبنّوا المفاهيم النفسية في المدرسة النفسية السلوكية، بل كان التوجه الذي التزم به اللغويون الوصفيون في تلك الحقبة، والنفسيون السلوكيون واحدًا تقريباً في ما يخص اللغة.

وكان لهذا أثر سيئ جدّا في تأخر علم الدلالة، لأن السلوكيين لا يؤمنون بوجود المعنى،فهو ليس أكثر من سلوك يتحكم به سلوك آخر، فالمثيرstimulus يتحكم بالاستجابة response ، وقد تعود الاستجابة نفسها لتكون مثيرًا فتتحكم بالاستجابة وهكذا. وليس عندي شك في أن هذه مماحكة لفظية. لأنه لا أحد ينكر أثر العلاقة بين المثير والاستجابة في إحداث المعاني، أو تخزينها في ذهن الإنسان. ورأس مال القوم أنهم يرفضون أن تسمى هذه العلاقة معنى.بل يرفضون القول بوجود شيء يسمى الجانب الذهني من اللغة. فاللغة سلوك يتحكم به المثير والاستجابة لا غير.

3– أن التقدير مرفوض جملة وتفصيلا، بل ينبغي أن يكون الوصف المحايد هو ديدن العالم اللغوي. وهذا القول فيه تدليس كبير أيضاً، لأن المادة اللغوية فيها عناصر بارزة، وفيها عناصر غير بارزة. فكيف يمكن وصف العناصر غير البارزة دون تقدير؟ بل إن العناصر البارزة تحتاج هي الأخرى إلى تقدير. فالتقدير والتأخير أمران بارزان، والتعبير عنهما تقدير. فالذي يرفض هذا القول لأنه تقدير، يرفض ما هو موجود مرئي لا مجال لإنكاره.

4– أن المعيارية مرفوضة، إذ إن اللغة لا تُحكم بالقاعدة، بل تُحكم بالممارسة والممارسة لا يمكن الوقوف على حقيقتها بالمعايير العقلية، بل بالوصف، وبالوصف فقط. وهذا القول فيه تدليس كبير أيضاً، فإن القاعدة لا تحكم الممارسة اللغوية، ولكنها تؤدي وظيفتين:

أولاهما: استقراء الظاهرة اللغوية، وحصر معالمها الأساسية في القاعدة، يعني أن القاعدة تلخيص مُحْكم للظاهرة، ولا يعني أن القاعدة تحكم اللغة. وقد أدرك النحاة العرب ضرورة تلخيص الظاهرة في القاعدة تلخيصاً محكماً، ولم يكن ذلك بغير

استقراء. قد يكون الاستقراء غير تام أحياناً. ولكنه استقراء على كل حال. ربما لم يكن الأمر كذلك في الدراسات اللغوية الغربية، لكنه كذلك في النحو العربي، فلا وجه للمقارنة إذن.

ثانيتهما: أن بناء القاعدة يهدف إلى تسهيل ضبط الظاهرة بمحدداتها ليسهل تعلمها وتعليمها. وإذا لم يكن الأمر كذلك في الدراسات اللغوية الغربية، فلا ينبغي الوقوع في غفلة التسرع واتهام النحو العربي، تقليدًا للوصفيين الغربيين.

وعودا على بدء؛ نفهم مما ذكره الأستاذ استيتية أن أهم ما تختلف فيه اللسانيات الوصفية هو الابتعاد المطلق عن المعيارية، فالوصفية إذا ليست مقابلة للتاريخية، بل للمعيارية.

على أننا في نهاية الحديث عن هذه النقطة لا بد أن نستثني طائفة من الباحثين من الوقوع في هذا الخلط، وهؤلاء هم ممن كان همهم دراسة النحو العربي القديم، تجديدا أو تيسيرا أو تمجيدا أو غيرها ... إن هؤلاء أدركوا فعلا المعنى الحقيقي للمعيارية، ولم يهتموا أصلا بالمنهج التاريخي، فلم يقعوا في الخلط.

والمنهج الوصفي بهذه الخصائص، يقتضي مراحل يمر بها البحث، وهي:

1-مرحلة الاستقراء: وتكون بجمع المادة اللغوية التي تكون موضوع الدراسة، أو ما يسمى بالمدونة في الدراسات الحديثة، وقد يكون الجمع بالبحث في رفوف الكتب بالنسبة للغات الميتة، أو بالنسبة لدراسة لغة ما في فترة زمنية سابقة، ولكن بالنسبة للغات الحية أو البحوث المعاصرة فإن ذلك يكون من أفواه المتكلمين مباشرة.

2-مرحلة التصنيف: ويكون ذلك بجعل المادة أصنافا أو أقساما بحسب طبيعة الدراسة، وموضوع الدراسة، والهدف منها.

3-مرحلة التعميم: وتكون بالنظر في المادة بعد التصنيف ومعرفة القواعد من خلال النماذج التي توفرها المدونة.

على أن كلمة قواعد لا تعني الإلزام أو المعيار بل تعني فقط الكيفية أو الطريقة.

2 – علم اللغة التراثي بنظر اللسانيين العرب المحدثين:

يعاني التراث اللغوي العربي من نظرة احتقار شنيع، موجهة إليه من طرف أبناء العربية الذين تشبعوا بمفاهيم اللسانيات الغربية، إلى الدرجة التي لم يعد بإمكانهم رؤية العلمية إلا من خلالها، فانصبوا على النحو العربي ينتقصون منه ويرمونه عن قوس واحدة.

ومن هؤلاء إبراهيم أنيس، وفريحة، ومهدي المخزومي، ورمضان عبد التواب، وتمام حسان، وأحمد المتوكل، وعبد القادر الفاسي الفهري.

إننا نعلم بشكل يقيني أن النحو العربي قد اكتمل مع سيبويه تماما، وأصبح في غنى عن الزيادة والإضافة، وإننا نعلم أيضا، مثلما يقر كثير من الدارسين العرب أن النحو العربي مع سيبويه والخليل قبله كان نحوا وصفيا. وإن الدارسين العرب

الذين نتحدث عنهم يدركون هذا جيدا، ولكنهم يصرون دائما على وصف النحو العربي بالمعيارية، وبالمنطقية والخروج عن اللغوية، ولكن شواهدهم لم تكن يوما من الكتاب، فلماذا؟

لقد أشار غير قليل من الدارسين العرب المحدثين إلى هذا الأمر في نفس الكتاب الذي رمى فيه النحو العربي بسهام المعيارية، وأهمهم تمام حسان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقع بعض الدارسين العرب تحت تخدير اللسانيات الغربية، فكل ما سواها باطل. فمن العقل مثلا أن يقول لساني عربي يدعي إرادة إفادة العربية وعلوم العربية أن يقول: " إن التراث عائق في كثير من الأحيان لهاته النهضة في المجال اللغوي والمجال اللساني، وأنا أتحدث عن تجربة، كانت الدعوة إلى التراث في كثير من الأحيان، ومازالت، عائقا للتطور وللتصور ولحل مشاكل العربية"[6]. وهكذا يتحول التراث العربي من قاعدة صلبة يقف عليها الباحث، وأرض خصبة يستخلص منها فوائد معينة على دراسة العربية، يتحول هذا التراث إلى معيق للبحث العلمي، وللتطور العلمي، ويقف حائلا دون حل مشاكل اللغة العربية !

وقد يقول البعض أن مثل هذا القول ينبغي أن لا ينقص شيئا من قيمة الأستاذ عبد القادر الفاسي الفهري، فربما ما كان مقصده التخلي عن التراث ورميه جانبا، بل فقط أن لا نقف عنده مرددين دون تجديد. ربما !

والإجابة : لا، إن الرجل يعني ما يقول، وربما أكثر مما يقول، وربما كان هذا القول أرحم من أقوال أخرى تتكرر في كتابه "في اللسانيات واللغة العربية"، ومنها مثلا في صفحة 60 : "من الخطأ الاعتقاد أن الآلة الواصفة للغة العربية الحالية أو القديمة تحتاج ضرورة إلى مفاهيم القدماء وأصولهم، أو بعبارة أخرى إلى الفكر النحوي العربي القديم، لقد بينا في عدة مناسبات أن هذا التصور خاطئ، وأن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال"[7] !!!

في الحقيقة؛ إن آخر عبارة تكون كافية لكي نفهم النظرة الدونية للفهري إلى التراث. وقد استطاع إقناع نفسه أن كل ما خالف اللسانيات الغربية الحديثة هو خاطئ بالضرورة. إنه منبهر تماما بالثقافة اللسانية الغربية، ولا يعتريه أدنى شك في صحتها، بل إن مجرد الشك شعوذة، يقول:" فالنماذج الغربية أثبتت كفاءتها الوصفية، وليس هناك ما يمكن أن يشكك فيها بهذه السطحية، ولا أحد يستطيع بشيء من الجدية، اللهم إن كان الأمر يتعلق بشعوذة، أن يدعي أننا بحاجة إلى نموذج آخر يبنى بالاعتماد على العربية لوصفها". [8]

إنه لمن العجب حقا أن نسمع من كبار الباحثين عندنا، أننا لسنا بحاجة إلى نموذج عربي، وأن النموذج الغربي كاف وصحيح وتام، وغير قابل للتشكيك فيه، مع أن منبع الفكر الغربي.

وما يهم بالنسبة لموضوعنا، ليس تقييم مثل هذه الرأي، ولكن فقط أن نفهم منه أن المشكلة لم تكن في النحو العربي، بل في أفهامهم المنقادة للسانيات الغربية، أي أن المشكلة ليست في معيارية النحو، بل في رغبتهم في رؤيته كذلك.

والفهري ليس شاذا في هذا، فالمتوكل لا يقل عنه شأنا في تحقير أي دراسة تتأسس على النحو العربي القديم، بل ينبغي أن تكون على حال الدرس الحداثي، وهكذا فالنحوي التراثي "استمر يرتل قواعد النحو العربي وخاصة ما وضع منها في عصر الجمود اللغوي، متعاميا متصاما عما يكتب أو يقال في ميدان الدرس اللغوي الحديث"[9].

3- إسقاط النظريات اللسانية الغربية المعاصرة على التراث العربي:

وما حصل ويحصل في هذا الباب عجيب حقا؛

فالتراث العربي المرمي بالمعيارية هو :

بنيوي برؤية بعضهم

ووظيفي برؤية البعض الآخر

توليدي تحويلي حينا

وتداولي أحيانا

بل في البنيوية نفسها من اختص بإسقاط بنيوية براغ، ومن اختص بتوزيعية الأمريكيين.

وفوق هذا كله فالنحو العربي سياقي تتجلى فيه أسمى مظاهر السياقية، وتظهر فيه أصول تحليل الخطاب ولسانيات النص، واللسانيات ... كل اللسانيات الغربية التي مضت، والقادمة، والتي لن تأتي أبدا.

إن في هذه الأمثلة شططا، وتحميلا للتراث فوق ما يمكن حمله عليه، وتأولا، وتعسفا في القراءة.

على أن بعض الآراء أشد غرابة من بعض؛ فتمام حسان مثلا يرى في التراث العربي حقلا معياريا بامتياز، على أن ذلك لا يمنعه من إقامة إسقاط البنيوية عليه كما في كتابه: مناهج البحث في اللغة، وفي كتابه اللغة العربية معناها ومبناها[10].

ولا بد أن نذكر هنا بالعائق العسير بين البنيوية والمعيارية، وهو عائق ليس من السهل تجاوزه. ولنفترض أننا تجاوزناه، فكيف يمكن أن نتجاوز كون النحو العربي القديم سياقيا ومعياريا في الآن نفسه؟ بل كيف يمكن أن نقيم دراسة وصفية للعربية المعاصرة، ويكون النموذج هو التراث اللغوي العربي القديم؛ كما فعل تمام حسان في اللغة العربية بين المعيارية والوصفية؟

والملاحظ على النحويين المحدثين كثرة إسقاطاتهم بحسب انتسابهم إلى هذا التيار اللساني أو ذاك. فتمام حسان كما رأينا بنيوي، ويعاضده في ذلك إبراهيم أنيس، و محمود السعران، ورمضان عبد التواب وفهمي حجازي.

وممن انتسب إلى التوليدية التحويلية نجد كلا من: عبده الراجحي، وميشال زكريا. وكلاهما طبق ما توصل إليه تشومسكي وتلامذته حرفيا على النحو العربي، وأسقطوا قضايا النحو العربي على النموذج التحويلي، وتحول العامل من عنصر مشين للنظرية اللغوية التراثية إلى ابتكار عربي أصيل، يتقاطع مع التفكير والنظرية العقلي لتشومسكي.

وحول العامل ومفهومه بين النحو العربي القديم والنظرية التوليدية التحويلية قامت نقاشات، وظهرت دراسات وأجريت بحوث، وخطت رسائل جامعية.

ولولا تشومسكي لظلت عبارات التنفير من العامل تملأ كتب النحو العربي الحديث.

وانتسب الفهري عبد القادر الفاسي إلى اللسانيات الكلية التشومسكية، وأمعن في السير خلفها، وحذر من مغبة مخالفتها مثلما مر معنا من أقواله، وغيرها كثير.

أما الأستاذ أحمد المتوكل فقد تبنى الوجهة الوظيفية التداولية، مركزا على الوظيفي في النحو العربي، وقد حقق سمعة طيبة في هذا المجال.

وبالنسبة للتداولية فالدراسات كثيرة ومتشعبة، ومنها على وجه الخصوص: نظرية أفعال الكلام في التراث اللغوي العربي لعبد السلام صحرواي، ومنها الصادر مؤخرا: مظاهر النظرية التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي.[11]

وأحيانا يكون الأمر مثيرا للاستياء والتعجب في الوقت نفسه، وذلك حينما تصادف باحثا، يدعي أن للنحو العربي جذورا بنيوية وأخرى توليدية، وقد ورد هذا الكلام عن مُحَمَّد الحناش في كتابه: البنيوية في اللسانيات؛ يقول: "لا أرى بوضوح حضور التيار البنيوي في الراث اللغوي العربي ... ورأيي أن من ادعى ذلك أو سيدعيه عند قراءته للمناهج اللسانية الأخرة سيجد نفسه مضطرا لمراجعة مواقفه. لأن سيجد أن منهج النحاة واللغويين العرب يقترب أكثر من التوليدية منه إلى البنيوية."[12]

ومثل هذه غريبة حقا. ولكنها برأيي تعطينا فكرة عن اتجاهات الألسنيين العرب وولعهم بتقليد السانيات الغربية. ومن هذا التقليد افتراؤهم صفة المعيارية على النحو العربي، مثلما فعل اللسانيون في أوربا حين نعتوا نحو العصور الوسطى في أوروبا بانه معياري، والحق أن النحو الأوربي كان فعلا معياريا.

ولما أخذت مناهج اللسانيات تخرج شيئا فشيئا عن البنيوية الفجة؛ أخذوا ينسحبون تباعا منها، ويستقرون على غيرها، مبتعدين كثيرا أو قليلا عن النظر في المعيارية والوصفية.

إن ما أردت قوله في هذا العنصر هو أن اللسانيين العرب قد وقعوا ضحية تقليد، تحت مغالطة تشابه النحوين العربي والأوروبي في بعض القضايا. ولكن نشأة النحو العربي كانت وصفية تماما، بعيدة عن أحكام المنطق الأرسطي، أو النزعة التعليمية القواعدية، أو عن إقحام عناصر غير لغوية في وصف اللغة.

فهل كان النحو العربي معياريا أم وصفيا ؟

4- في نشأة النحو العربي:

إذا حاولنا إسقاط مراحل المنهج الوصفي على نشأة النحو العربي فسنجدها تتحقق بشكل واضح وصريح، لا يحتمل الجدل. وما تخبرنا المؤلفات التراثية أن أوائل هذا العلم كانوا يخرجون إلى البادية للسماع، وكانوا يجمعون المادة من كل حدب وصوب، وربما قطع الواحد منهم مسافات طويلة، وسفرا شاقا لأجل السماع من بعض القبائل، كل ذلك توسعا، وزيادة في المدونة. وهذه هي مرحلة الاستقراء، وأما التصنيف فمرحلة عقلية وفكرية. أما التعميم واستخلاص القواعد فهي أيضا متحققة في كتب النحو الأولى، كالكتاب مثلا. وهو مؤلف يخلو من السمة المعيارية، أعني يخلو من وضع قواعد التي تعني القوانين، ولكن القواعد التي تعني استنتاجا من كلام العرب.

ولقد حاول بعض الغيورين رد بعض الشبهات عن النحو العربي، وبخاصة في مرحلته الأولى، أي مرحلة النشأة، ومنهم الأستاذ: عبد الرحمن حاج صالح. وقد ركز على أن النحو العربي لم ينشأ على تأثير المنطق الأرسطي الفلسفي، وهذا رد على من ادعى أن النحو العربي نحو منطقي أرسطي، وبالتالي فهو معياري. وقد أثبت عبد الرحمن الحاج صالح بالدليل أن كتاب سيبويه خال تماما من عبارات أو مفاهيم المناطقة، أو حتى مراميهم وأغراضهم، ولكن حدث بعد مرحلة النشأة تأثير تفشى فيما بعد. لكن في بداية النحو العربي، كان هناك نزعة وصفية، يقول:

"نشرنا في 1964م مقالاً حاولنا[13] أن نبرهن فيه على أن النحو العربي لم يتأثر في نشأته ولا عند اكتماله في زمان الخليل وسيبويه بمنطق أرسطو إطلاقًا. وقد أقرَّ بذلك بعد سنتين المستشرقان كارتر (Carter) وتروبو (G.Troupeau).[14]

وحصل التأثر بالفعل في زمان ابن السراج – ومعاصريه كابن كيسان وغيرهما وأولئك الذين سُمُّوا بالمدرسة البغدادية. وقد ازدهرت الفلسفة اليونانية في بغداد وذلك في عهد المعتضد بالله بالضبط.[15]

بينما علل الباحث علي زوين اعتبار النحو العربي في نشأته نحوا وصفيا بمجموعة اعتبارات، هي:

1-اتصال النحو العربي بالاستعمال المباشر، والاستعمال قرينة الوصف، فلا يعقل وجود وصف بدون استعمال.

2-تلقي النصوص من أفواه الرواة، ومشافهة الأعراب والتلقي عنهم، مما مهد الطريق إلى استقراء اللغة العربية، واستنباط القواعد.

3-اعتماد المسموع من اللغة، وبخاصة عند مدرسة الكوفة التي تميزت بتوسعة مجال السماع، وما بين نشأة النحو في البصرة ثم الكوفة مدة زمنية مثمرة بكثير من مؤلفات النحو العربي.

4-تناول الظواهر اللغوية على أساس شكلي، والشكل هو اهم مقومات الدراسات الوصفية[16]

ورغم أن مهدي المخزومي من أشد الناقمين على النظرية النحوية التراثية، إلا أنه يرى أن النحو العربي بدأ وصفيا وبخاصة في مدرسة الكوفة، يقول: "رأينا الدراسات العربية الأولى تتسم بالوصف وتنأى عن المعيار إلى حد كبير"[17].

وأخيرا يرى الأستاذ عبد السلام المسدي أن لا تعارض بين الوصف والمعيارية، وإن في الخطاب الواحد، فيحتمل أن يتسم بالوصفية وبالمعيارية في الآن نفسه، يقول: "والحقيقة التي خفيت عن فقهاء اللغة وعن كثير من اللسانيين أنفسهم هي أن الوصفية والمعيارية مقولتان لا تنتميان على صعيد فلسفة المعارف إلى نفس المنطلق المبدئي ولا إلى نفس الحيز التصوري، فليستا من طبيعة واحدة، فليس لزاما أن تقوم بينهما علاقة"[18].

خاتمة:

وفي نهاية هذه البحث، والذي كان الهدف منه توضيح كون النحو العربي نحوا وصفيا، وأن المنهج الوصفي قد استعمل وتمت ممارسته عند العرب قديما وإن كان ذلك دون ذكره بالمصطلح ولا بالمفهوم.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

1-إن الوصف هو المقابل للمعيارية، وليس للآنية، فهذه الأخيرة تقابلها التاريخية، أو التعاقبية.

2-إن اللسانيات الوصفية لا تعني البنيوية بالضرورة، فالوصفية أوسع، وقد شملت اتجاهات شتى في البحث اللغوي.

3-إن النحو العربي قد اكتمل كلية في صورة وصفية للاستعمال اللغوي الشفاهي أو المنطوق، مما يجعل وصفه بالمعيارية ضربا من التعسف والتقليد.

4-إن اللسانيين العرب يحفلون كثيرا للنظريات اللغوية الغربية، ويبلون جهودهم لتقليد الغرب في كل شيء، حتى لو كان ذلك على حساب مساحة الذات، أي التراث اللغوي العربي القديم.

الإحالات و الهوامش:

[1] -ذوقان عبيدات وآخرون: البحث العلمي، مفهومه وأدواته وأساليبه، دار مدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ب-ت، ص 07.

[2] -ميشال زكريا: الألسنية، ص 144.

[3] -نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 106.

[4] -علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، ص 10.

[5] سمير شريف استيتية: اللسانيات الحديثة في الجامعات الأردنية ، أعمال مؤتمر الندوة اللغوية، 2009، ص 513-514.

[6] عبد القادر الفاسي الفهري: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، طوبقال، المغرب، ط1، 1986، ص94.

[7] عبد القادر الفاسي الفهري: في اللسانيات واللغة العربية، طوبقال للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، ص60.

[8] - المرجع السابق: ص57.

[9] أحمد المتوكل: نحوقراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني، مجلة كلية الآداب، الرباط، ص91.

[10] محمد الأوراغي :اللسانيات النسبية: دواعي النشأة، دار الإيمان، الرباط، ط1 2010، ص 56.

[11] -كتاب صدر حديثا للأستاذ: باديس لهويمل.

[12] محمد الأوراغي: اللسانيات النسبية، ص57.

[13] في مجلة كلية الآداب بجامعة الجزائر، المجلد الأول 1964 (ص 67 – 86).

[14] انظر **Les origines de la grammaire arabe** في **Revue des études islamiques 40 – 1972** (ص **69 – 97**).

La logique d'Ibn al–Moqaffa et les origines de la grammaire arabe in Arabica,

1981 (**242 – 250**)

[15] عبد الرحمن الحاج صالح: تأثير النظريات العلمية اللغوية المتبادل بين الشرق والغرب: إيجابياته وسلبياته، مجلة مجمع اللغة العربية، الدورة 15، القاهرة، ع96، 2002، ص 113.

[16] علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص 14 وما بعدها.

[17] مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، مطبعة الحلبي، 1958، ص 72.

[18] عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، 1986، ص 15.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد المتوكل: نحوقراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني، مجلة كلية الآداب، الرباط.

2- الأوراغي محمد :اللسانيات النسبية: دواعي النشأة، دار الإيمان، الرباط، ط1 2010.

3- ذوقان عبيدات وآخرون: البحث العلمي، مفهومه وأدواته وأساليبه، دار مدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ب–ت.

4- عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، 1986.

5- عبد الرحمن الحاج صالح: تأثير النظريات العلمية اللغوية المتبادل بين الشرق والغرب: إيجابياته وسلبياته، مجلة مجمع اللغة العربية، الدورة 15، القاهرة، ع96، 2002.

6- علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986.

7- سمير شريف استيتية: اللسانيات الحديثة في الجامعات الأردنية ، أعمال مؤتمر الندوة اللغوية، 2009.

8- ميشال زكريا: الألسنية، (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، الدار الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

9- مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، مطبعة الحلبي، 1958

10–مجلة كلية الآداب بجامعة الجزائر، المجلد الأول 1964.

11-نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.